

جائزة مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية

كلاوديا ماريا تريسو، خطاب الترشيح

تورينو (إيطاليا)، 15.06.2022

بدأت أدرس العربية منذ أكثر من ثلاثين سنة وفي سنة 1997، عندما أصدر كتابي "اللغة العربية المعاصرة" لتعليم العربية للناطقين بالإيطالية، كتبت في أعلى صحفته الأولى: "لأم طارق وأمّ عبد الحميد، من الناصرة، لما قدّمتا لي من حبّ اللغة العربية". وبالحق لا أستطيع أن أقول إنني درست - ولا أزال أدرس - العربية بل إنني عشقت العربية ولا أزال أحبها حتى الآن. وإذا كانت الإيطالية لغتي الأمّ فإنّ العربية لغة قلبي، لأنها اللغة التي اخترتها وإنها قدمت لي هدية نفيسة، لا توجد في أجمل دكاكين الدنيا، وهي المفتاح لكي أدخل إلى الحضارة العربية الإسلامية وأحاور أبنائها من الأجيال السابقة والمعاصرة.

بدأت أدرس العربية بعد إقامتي في مدينة الناصرة عند عائلات بعض الأصدقاء الذين عرفتهم في إيطاليا وهم كانوا يدرسون الطبّ في مدينتي تورينو. بدأت أتكلّمها مع النساء والأطفال، وأنا أطبخ الحمص والفلفل مع أمّ عبد الحميد، أو أجلس في القاعة لتدخين الرجيلة مع الشيخة أمّ طارق. بدأت أتكلّمها بصوت متردد مع الأولاد الذين كانوا يتكلمونها بسهولة وهم يسخرون منّي، شابة كبيرة تخطأ في الكلام والنطق! ورغم أنني لم أكن أفهم المعنى، بدأت أن أحب صوت الأبيات الأنيقة للشعراء العرب مثل محمود درويش، ونزار القباني، وفدوى توفان، التي أنشدها الشيوخ والشباب خلال جلساتنا في الحديقة لشرب الشاي وتناول الحلويات الشرقية الفاخرة. لذلك يمكنني القول إن أصدقائي من العرب وضيافتهم الكريمة هم السبب الأول الذي دفعني لأحب لغتهم ودرسها بعد رجوعي إلى بلادي بعد تلك العطلة الرائعة، التي غيّرت حياتي كلها.

أولاً درستها في تورينو، في نفس الجامعة التي درست فيها اللغات الكلاسيكية القديمة (اللاتينية واليونانية). وفي لغة العرب وتراثهم الغني وجدت السبب الثاني الذي دفعني إلى التعميق في دراسة العربية وغادرت بلدي استجابة للأمر الكريم: "ابحث عن العلم ولو في الصين" لأدرس في جامعة تونس، حيث درست لمدة أربع سنوات اللغة العربية وتعليمها لغير الناطقين بها، كما درست لمدة سنتين اللغة والحضارة العربية في جامعة ليون في فرنسا وحصلت على الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها في المعهد الشرقي لجامعة نابولي، في جنوب إيطاليا. وأخيراً حصلت على منصب باحثة في جامعة تورينو وبعد بضع سنوات أصبحت أستاذة في اللغة العربية وآدابها: بفضل مساعدة الله ومهارة أساتذتي وصبرهم، وجهودي الشخصية، لقد تحققت حلمي!

في السنوات نفسها التي قمت فيها بهذه الدورة الطويلة من الدراسات، بدأ يزيد اهتمام الإيطاليين تجاه العرب، ولم يكن هذا الاهتمام يرجع لتزايد دور العرب على الساحة السياسية والاقتصادية الدولية فقط، بل ساهم في ذلك حضور عدد كبير من العرب - أغلبهم من المغرب وتونس ومصر - المهاجرين إلى إيطاليا، كما ساهمت في ذلك أيضاً السياسات الثقافية الأوروبية الجديدة، المميزة للعلاقات بين شمال البحر الأبيض المتوسط وجنوبه، حيث تُعد إيطاليا في هذا الإطار

جسرا جغرافيا وثقافيا، يربط بين بلدان أوروبا وبين بلدان العرب في شمال إفريقيا وفي الشرق الأوسط في ميادين مختلفة مثل التجارة والسياحة والتعاون الدولي.

وانعكس هذا الاهتمام على عدد طلاب اللغة العربية في الجامعات الإيطالية، حيث كنا خمسة طلاب عندما بدأت أدرس العربية في جامعة تورينو، بينما عندما بدأت أدرّسها في هذه الجامعة نفسها، كان أمامي 150 طالبا! وكان هذا العدد الكبير من الطلاب يحتاج إلى أساليب تعليمية حديثة، وكتب مدرسية مختلفة وجديدة، يوجد فيها كلمات وعبارات من اللغة الحية وتمارين متوافقة مع طرق التعليم/التعلم الحديثة المستخدمة في تعليم/تعلم اللغات المعاصرة الأخرى، ولكن للأسف لم تكن هذه الأدوات متوفرة في إيطاليا، حيث كان الاهتمام بحضارة العرب وتأريخهم في الماضي حصراً على نخبة قليلة من المستشرقين. وفي الواقع قد تمّ تأليف الكتاب الوحيد لتعليم العربية للناطقين بالإيطالية في عام 1937! أما القواميس، في نهاية السبعينات كتب الأستاذ ترايني (Traini) قاموساً رائعاً من العربية إلى الإيطالية، ولكن لم يكن متوفراً قاموس من الإيطالية إلى العربية - الأمر الذي يميّز دراسة اللغات الميئة، مثل اللاتينية واليونانية القديمة، لأنه، بطبيعة الحال، لا أحد يحتاج إلى أن يكتبها أو يتكلمها اليوم! كان هذا الوضع يحزنني حزناً شديداً، لأن اللغة العربية لغة فريدة في العالم، تستطيع البقاء حية عبر مرور القرون، وهي تغرق جذورها في القرآن الكريم وخلال ما يقرب من ألف ونصف سنة ازدهرت - ولا تزال تزدهر - في الأدب والشعر والعلوم والعلاقات الدولية والمعلوماتية، إلخ.

كنت أرغب رغبة كبيرة في أن أعالج هذا الوضع، ولذلك اقترحت على ناشر إيطالي عظيم، متخصص في إنتاج كتب لتعليم اللغات الأجنبية، هوبلي (Hoeppli)، من ميلانو، مشروعاً تحريرياً كبيراً، كان هدفه أن يسمح للإيطاليين بتعلم اللغة العربية. كنت أعرف أن هذا العمل سيتطلب منّي كثيراً من الوقت وكثيراً من الجهد، ولكن كنت أودّ وداً شديداً أن أساعد كل من يرغب في معرفة لغة الضاد من الإيطاليين. قبل الناشر اقتراحي ولمدة سنوات عديدة طالت عليّ الأيام والليالي وأنا مستغرقة في الدرس والكتابة. ونتيجة لذلك، ما بين 1997 و2014 وضعت كتابين في تعليم/تعلم اللغة العربية (1997 و2018)، كتاب عن تصريف الأفعال العربية (2002) وقاموس إيطالي - عربي (2014). كم أنا سعيدة: بفضل الله تعالى والاقترحات العديدة من زملائي الأساتذة العرب، وصبر الناشر ومساعدة المحررين، انتهى مشروعني والحمد لله!

وفي الوقت نفسه، معرفتي بالحضارة العربية جعلتني أعرف القيمة الكبيرة التي كرّسها - ولا يزال يكرسها - العرب للترجمة. إنّ الحضارة العربية الإسلامية التي نقلت إلى العالم رسالة الله بلغة فيها من البلاغة والجمال ما جعلها تُعتبر غير قابلة للترجمة، هذه الحضارة آمنت أكثر من أي حضارة أخرى بقيمة الترجمة، وبذلت كل ما لديها من طاقات وكفاءات وأموال حتى يكون بإمكان "الشعوب والقبائل أن يتعارفوا" على الرغم من اختلاف لغاتهم. بعد التفكير في هذا، ونظراً لمعرفتي باللغة العربية، قررت أن أقدم لشعبي إمكانية قراءة تحف الأدب العربي، التي لم يترجم الكثير منها إلى الإيطالية بعد، وأثناء تأليف الكتب لتعليم اللغة العربية، ترجمت أيضاً عدداً من روايات الأدب العربي المعاصر (خليل جبران، إميل حبيبي، آسيا جبار، ملكة مقدم، دلال خليفة، إلخ)، حتى شعرت بالاستعداد لمواجهة العمل الأصعب الذي كنت أقصده: ترجمة تحفة أدبية عربية من القرون الوسطى، أي العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية العظيمة. لذلك اخترت العمل الذي كنت أحبه أكثر من غيره والذي، في رأيي يستطيع أن يجعل القارئ الإيطالي يعرف ويفهم ليس أهمية هذه الحضارة وثقافتها الثمينة فحسب، بل أيضاً الإيمان العميق بالله الذي تتميز به الأمة الإسلامية وأبنائها، وإنه "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، المعروف برحلة ابن بطوطة. كان العمل صعباً ومتعباً واستغرقت فيه مدة سبع سنوات، ولكن بالرغم من هذا أصبح عملي شيئاً فشيئاً سفرًا حقيقياً بوسيلة اللغة العربية، ووجدت نفسي أغادر بلدي وزمني لأسافر مع

الرحالة الكبير في عوالم الحضارة العربية الاسلامية: منذ أصولها إلى القرون الوسطى، من المغرب إلى الصين، من روسيا إلى السودان...

وفي شهر سبتمبر 2006 صدرت رحلة ابن بطوطة في أهم سلسلة لإحدى أشهر دور النشر في إيطاليا، واسمها إيناودي (Einaudi)، من تورينو: الكتاب - وكأنه كنز ثمين - موضوع داخل صندوق جميل تزيّنه رسوم مختلفة الألوان رسمها الفنان الإيطالي المشهور ألدو موندينو. وبعد أيام قليلة صدر خبر نشر رحلة ابن بطوطة بالإيطالية، بكاملها وللمرة الأولى، في كل الجرائد الإيطالية وهي تهدي إلى العالم العربي صفحات كاملة ليس في الجزء المخصّص للسياسة الدولية أو لمشاكل الأمن العام، كما هي العادة، للأسف، في السنوات الأخيرة، بل في الجزء المخصّص بالثقافة! كم كانت سعادتني لا توصف بهذا الحدث وكذلك الكثير من أصدقائي العرب المقيمين في إيطاليا حيث كان في إمكانهم أن يُظهروا تلك الصفحات للإيطاليين وأن يقولوا لهم باعتزاز: ها هي حضارتنا العربية الإسلامية، ها هو تاريخنا، ها هو شعبنا العربي المحترم! وكم كنت سعيدة عندما كتب لي ملك المغرب محمد السادس - حفظه الله - رسالة خطية يشكرني فيها على عملي واجتهادي في نقل رحلة ابن بطوطة إلى الإيطالية!

وفي عام 2008 فزت بالمرتبة الأولى من "جائزة خادم الحرمين الشريفين العالمية للترجمة"، وكان لي الشرف العظيم زيارة قلب العالم العربي الإسلامي، المملكة العربية السعودية، واستقبالي في قصر الملك عبد الله بن عبد العزيز - رحمه الله.

أما أبحاثي الحالية، بطبيعة الحال لا أزال أدرس وأدرّس اللغة العربية الفصحى والمعاصرة، كما أكتب كثيرا من المقالات عن اللغة والأدب العربي، خاصة عن رحلة ابن بطوطة، حيث أجد فيها ثروات لا نهاية لها لمعرفة شعوب دار الإسلام في القرون الوسطى. في السنوات المقبلة، أود أن أترجم تحفة أخرى من تحف العرب، ولإكمال بحثي عن الرحالة العرب في العصور الوسطى، قد تكون هذه التحفة رحلة ابن جبير، التي تُرجمت جزئيا إلى الإيطالية في بداية القرن الماضي ولكنها لم تعد متاحة في السوق. إنني على يقين تام أن الأدب العربي الكلاسيكي والمعاصر لا يزال ينقل إلى الأجيال المعاصرة، من العرب كانوا أو من الشعوب الأخرى، أهم مفاهيم الحضارة العربية الإسلامية، والذي هو التواصل الحضاري والثقافي والعلمي بين الأمم والشعوب وكما هو مكتوب في القرآن الكريم: "يَأْيُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا"¹. فيعتبر انتشار المعرفة بين الثقافات من أهم متطلبات المجتمعات المعاصرة. أنا من أهل الأدب وأنا امرأة: لا أحب الصراع وأبحث عن السلام والحوار. ولا شك أن الخطوة الأولى للسلام هي المعرفة. كما قلت سابقا، قدمت لي اللغة العربية المفتاح لكي أدخل إلى الحضارة العربية الإسلامية: أرجو أن يكون اجتهادي في نشرها بين أبناء شعبي حلقة من حلقات سلسلة المعرفة والتعاون بين العرب والإيطاليين، في سبيل السلام والاحترام المتبادل، إن شاء الله.

و تقبلوا مني فائق التقدير و الاحترام

كلاوديا ماريا تريسو

صباحة

¹ القرآن، السورة 13، آلة رقم 49 (Cor. 13, 49).